الأدبُ الإسلامي وفاعليةُ سلطة المركز
بين دلالتي التوصيف والتوظيف

فارس عبد الله بدر الرحاوي*

مدخل:

الأدبُ الإسلامي هو أحد تلك الخطابات، التي تمتلك فاعليتَها، وقدرتَها في الحضور، من خلال سلطة تسعى إلى تأسيس المفاهيم المعرفية التي تقوم على إدراك الواقع الحضاري للأمة الإسلامية، والعمل على ربط معطيات هذا الواقع بما كان عليه من بناء معرفي رصين، تمثل في تراث الأمة الإيجابي، والتطلع لبناء واقع أمثل في ظل ظروف الفوضى الحضارية التي يعيشها العالم.

ومن هذا المفهوم يمكن القول: إنَّ الأدب الإسلامي الحي، الصادق، الملتزم بالإسلام دينا للدنيا والآخرة، والمعبّر عن العقيدة بشموليتها الإنسانية والكونية، وتكاملها الروحي، هو الأدب الذي يحقق كيانه الأسمى، ويوحد العلاقة غير المفتعلة بينه وبين الإنسان، وبينه وبين الوجود، والذي "لن يكون إلا صورة من صور الإسلام وهو يخلص الإنسان من جاهليته، وكما فعل في المجتمعات الجاهلية حين استصفى منها كل فضائلها، وصاغها مع نظامه المتكامل؛ لأنها تتوافق مع فطرة الإنسان وناموس الكون، كذلك ينبغي أن يفعل الأدب الإسلامي المعاصر مع الأدب السائد اليوم في العالم الإسلامي، والآداب الأخرى في العالم."[1] فيتفاعل معها من خلال المنهج الإسلامي الذي يمعن في استقراء الحقيقة، والخروج من الأوهام، لا من خلال لحظة الإعجاب الزائلة أو العابرة بهذه الآداب.

---

* دكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة الموصل، مدرس في معهد إعداد المعلمين/ نينوى- العراق.

[1] بريغش، محمد حسن. **في الأدب الإسلامي المعاصر (دراسة وتطبيق)**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨م، ص٩٩.

وهذا يفرض على الأديب الإسلامي أموراً عديدة، أهمها: النظر إلى موضوعات الأدب الإسلامي نظرة حية جديدة، وخلاّقة، بعيداً عن المتداول التقليدي في الوعظ والإرشاد، فضلاً عن التفاعل مع مجمل قضايا الإنسان العصرية، وهمومه ومشاكله التي تشغله، وبروح وثّابة، تجعل الإبداع خلقاً يتناسب والعمرَ الزمني للإسلام ديناً وفكراً وثقافة؛ إذ إنَّ الدين الذي استطاع أن يتغلب على العقيدة الجاهلية الأولى دينياً واجتماعياً، وأن يسمح بعد عصور قريبة من بدايته باختراق الذائقة الثقافية واللغوية العربية، بفعل التثاقف مع المجتمعات الأخرى، دون أن يتهمها بالخروج عن الدين وثوابته، أو رميها بالكفر والإلحاد، لقادر بعد خمسة عشر قرنا، أن يغيّر في عالم مادي ما لم تستطع المادية الوضعية أن تغيّره.

أمَّا الأمر الآخر الذي ينبغي الانتباه إليه، فهو الإعجاب المفرط للأدباء والنقاد بما ترفده إلينا الحضارة الغربية المعاصرة، مما يحفّز الأدباء المسلمين على مواجهة المناهج والنظريات الغربية التي اجتاحت العالم الإسلامي، والتي سعت بدورها إلى تشتيت العقل المسلم، وتفتيته أحياناً، أو تغييبه بدواعي الاتصال بالحضارة العالمية المعاصرة، في ظل هيمنة مظاهر العولمة والاتصالات وصراعات القوى الاستعمارية، وفي ظل الإعجاب بكل ما أنتجه الغرب.

بيد أنَّ هذه المواجهة الفكرية والثقافية لا تعني، بأيِّ شكل من الأشكال، إعلان حالة التقاطع مع هذه المناهج، وعدّها عنصراً هداماً قبل أن يبدأ العقل الإسلامي بدراستها، وتدبُّرها، وقبل أن يرفضها، أو يوافق عليها، فهي نتاج التفاعل الفكري الإنساني، وتجاربه التي تحتمل الخطأ والصواب؛ لذا، لا بدَّ أن يكون فيها ما يفيد العقل الإسلامي، ولو كان الأمر بحدوده الدنيا.

ولعلَّ هذا ما دعا بعض الأدباء والمفكرين الإسلاميين إلى القول بالانفتاح، وعدم التقوقع على أنفسنا، والجمود في مكاننا؛ لأنَّنا مهما ابتعدنا عن الآخر، فإنَّ الآخر يعيش في حياتنا، ولا يمكن أن يفارقنا، ومثلما يكون للآخر اتجاهات يرسلها إلينا، فلنا أيضاً اتجاهاتُنا التي نرسلها إليه، وكما أنّ لنا خيارات حق الرفض والقبول لاتجاهاته،

كذلك الأمر بالنسبة له. ومن هذا المبدأ رأى الشاعر الإسلامي حكمت صالح، أنّنا بقدر ما نحتاج إلى تراثنا القديم بوصفه مصدر إلهامنا، ومعين لغتنا وأدبنا، نحن بحاجة إلى ما هو جديد؛ إذ إنّ إمكانية الانفتاح على العالم ومعرفة تجاربه الحياتية، هو السبيل الوحيد الذي يكفل لاتجاهاتنا الجديدة التعبير عن تجاربنا الحياتية المعاصرة.[٢]

وهذا الحراك الفكري عند النقاد أدّى إلى جدل يتمحور حول وجود الأدب الإسلامي من عدم وجوده، وينطلق هذا الجدل من مفاهيم العناصر والأنساق والأشكال والمضامين، التي يشترك فيها هذا الأدب مع كل أنواع وأنماطه الأدب بصورة عامة، فيبني تصوره من خلال الإزالة، أو الإزاحة المشتركة للعناصر التي تكوّن هذا الأدب، وتشكّله، مما يُظهِر في النتيجة هذا الأدب فقيراً، لا وجود له، وأنّ تسمية هذا الأدب بـ(الإسلامي)، هي تسمية عارضة، لا وجود لها، إذا ما قورن هذا الأدب بما قدمه البعض من الأدباء غير المسلمين أمثال (جوته وطاغور)، وبما يتوافق مع الرؤى الإسلامية من حيث المضمون. بل ذهب آخرون، إلى أنّ كثيراً من النتاجات الإبداعية لا تدخل في دائرة الأدب الإسلامي؛ لأنّها تنطلق من معايير ونماذج تقليدية. وهذا ما يجعل الأدب الإسلامي محصوراً في عصوره الأولى.

ولحل هذه الإشكالية، من حيث التسمية والوجود، وبغية تثبيت رؤية حقيقية في وجود أدب إسلامي، توزع البحث على ثلاثة محاور يعدّها الباحث أسساً قائمة، لا يمكن التغافل عنها، وهي: محور فاعلية سلطة المركز، ومحور دلالة التوصيف، ومحور دلالة التوظيف.

أولاً: فاعلية سلطة المركز

١. النص وفاعلية الانتماء:

النص، أيّاً كان نوعه، إنّما هو جسد حقيقي ينتمي إلى ذاته، ولا يمكن أن ينتمي إلى غيره، بقدرة سلطة خَلْقه، وتكوينه، ولكنه يجانسه في التحرر عندما يكون التحرر

[٢] ينظر: صالح، حكمت. **نحو آفاق شعر إسلامي معاصر**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٧٩م، ص٩.

انفتاحاً، وإثارة، فيخرج من ذاته خروجا قصدياً باتجاه العالم، باحثاً عن المرافئ التي يرومها، فيمارس فعله في محيطه، ومن خلال السُّلطة التي أسهمت في تكوينه الذاتي.

لذا، ومن مفهوم هذا الانتماء، يمكن القول: إنَّ فاعلية السلطة وقوتها التي تخلق هذا النص هي التي تحدد ماهيته وعنوان هويته. فعندما يدافع الأدباء الإسلاميون بأدبهم عن الإسلام، أو عندما يتناولون مضموناً من المضامين الإسلامية، فهم يدافعون عن انتمائهم الذاتي المتحقق في أعماق النفس والذات المؤمنة بهذا الانتماء، وهو في حقيقته انتماء عقدي، روحي وفكري، يعبّر عن صدق الإيمان وأحاسيس الذات المسلمة.

ومن هنا، فإنَّ سلطة المركز، من وجهة نظر الباحث، هي سلطة توجد في كل أنواع الأدب، أياً كان نوعه، تفعل فعلها في ذات تكوينه، بغض النظر عن (المتخيل الإبداعي)، الذي تصنعه المخيلة، وهو الفعل الناجز من صنع مخيلة الأديب واستخداماته لأدواته، والذي يمكن أن يكون سلطة أخرى، باستطاعتها أن تفعل فعلها في سلطة المركز.

لذا، فإنَّنا نرى أنَّ سلطة المركز هي سلطة موضوع وليست سلطة مخيلة، بوصف المخيلة من الممكنات الذاتية للأديب المبدع؛ وبذلك، فسلطة المركز لا يمكن عدّها سلطة متخيل. ومن هذا المفهوم، فإنَّ أي أدب لا بدّ له أن ينتمي إلى سلطة تحدد موضوعه، وهويته، ولعل هذا الانتماء إلى سلطة المركز كان سبباً حقيقياً في ظهور أدب متنوع لا يمكن حصره من حيث موضوعاته ومضامينه، لا من حيث الفعل الإبداعي المتجسد بفعل المتخيلة.

إنَّ سلطات المركز متعددة بتعدد المضامين، لا بتعدد الأشكال والقوالب والأنماط، ولكن هذا لا يمنع من تفاعل السلطتين؛ المضمون والشكل تفاعلاً تاماً في متخيل إبداعي يثبت قدرة المبدع، شاعراً كان أم ناثراً، في تجسيد موضوعه في شكل يميزه عن إبداع آخر وفي المضمون ذاته. لذا، فإنَّ سلطة المركز ليست سلطة مُقيِّدة ومُحدِّدة يمكن أن تعسّر في قدرات الأديب المبدع، وفِعْل مخيلته، أو يمكن أن تخرجه من دائرة

الأدب، فهو أدب بشكله ومضمونه، وبكل اعتباراته الفنية. وإذا كان هناك خلل في أية قصيدة أو قصة أو مقالة مهما كان مضمونها، فإنَّ ذلك يرجع إلى قدرات الأديب وإمكانياته الذاتية في إخراج موضوعه؛ لأنَّ الأدب قد أصبح علماً له قوانينه، إلى جانب الفطرة التي لا تصنع أدباً إبداعياً متميزاً وحدها، فالأدب الناضج، المتميز، هو صناعة فنية لمضمون خام.

إنَّ سلطة المركز في الأدب الإسلامي هي سلطة وجود العقيدة الإسلامية في هذا النوع من الأدب، مثلما هو الحال في وجود سلطة أدب السياسة أو الهجاء أو الجنس أو الإلحاد، أو الغزل، إلخ.

وهكذا، هو الأدب الإسلامي، حين يبحث في مرافئ الآخر، يكون نصاً وخطاباً متحرراً ومنفتحاً على العالم والوجود، ولكنَّه في الوقت ذاته، يبقى جسداً ينتمي إلى ذاته، لا إلى غيره، ولا يقبل أي انتماء آخر، ومن هذا المنطلق نجد نصوصاً إسلامية تمثل بحق هذا الانتماء العقدي للعقيدة الإسلامية، وهو انتماء لسلطة، وما هذه النصوص إلا ثمرة فعالية هذه السلطة التي أوجدتها، وهي بتعبير أدق، أنموذج حقيقي يعبر عن هوية المنتمي لهذه السلطة، والمؤمن بها إيماناً حقيقياً.

ولعلنا نتلمس صدق هذا الانتماء من خلال نصوص بعض الشعراء الإسلاميين من أمثال: محمد إقبال عروي، ويوسف القرضاوي، ونجيب كيلاني، وحكمت صالح، ومحمد علي إلياس العدواني، وصلاح الدين عزيز، وإبراهيم النعمة، وذو النون يونس مصطفى، ومحمود مفلح، ومحمد منلا غزيل، ومحمد بنعمارة، وغيرهم كثير.

فمما يقوله الشاعر حكمت صالح في قصيدته (السهو عن الذات في محاريب الصلاة):[٣]

إِنَّها رُوحِي..
بِمِحرابِكَ حَلَّتْ

[٣] صالح، حكمت. **الإبحار في ماء الوضوء (ديوان شعر)**، الموصل، العراق: منشورات البراق الثقافية، ط٤، ٢٠٠٧م، ص١٧.

رُبَّما يَعْكفُ قَلبي
للصَلاةْ
جَذَبَتْنِي قِبْلَةٌ
أَسْهُو بِهَا عَنْ كُلِّ مَا حَوْلِي
وَيَسْهُو الانْتِبَاهْ
وَحُشَاشَاتِي انْتَضَتْنِي أَرَقاً
يَحْجُبُ طَرْفِي
بِجَلاَلٍ لَنْ أَرَاهْ
وَانْبِهَارِي..
صَارَ جُزْءاً مِنْ جَمَالِيَّاتِ كَوْنٍ
ضَاقَ عَنْهُ مُحْتَوَاهْ

أما الشاعر الإسلامي محمود مفلح، وهو من فلسطين، فإنَّنا نلمح إصراره وثباته على العقيدة الإسلامية في قوله:[٤]

مِن مهبطِ الوَحْي كانَ النورُ يَغمرُنا وَمِنْهُ سَوفَ يَظَلُّ النورُ للأبدِ

أما الشاعر الإسلامي صلاح الدين عزيز وهو من العراق، فقد كانت قصيدته بعنوان (خمسون عاما) تقريضاً جميلاً لقصيدة كعب بن زهير، فيقول:[٥]

بانَتْ سُعادُ فَقَلْبي اليومَ مَعْلُول لم يَشفِهِ بَعدَها بَرَدَى ولا النيلُ
كانتْ سُعادُ تُسلِّيني هِدَايَتُها في وَحْشَةِ الدهْرِ تَحشُوهُ الأَباطِيلُ
وإنَّ بُردَتَها نُورٌ وَمَرحَمَةٌ رُوحُ الرسُولِ عَليها اليومَ قِنديلُ

[٤] مفلح، محمود. **الراية (ديوان شعر)**، الأردن: دار عمار، ط١، ١٩٨٣م.
[٥] ملتقى البردة للأدب الإسلامي، (الملتقى الأول، الموصل ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص٦٣.

إنَّ عمق الأصالة التي يمتاز بها الشاعر الإسلامي تبدو من خلال تمسكه بالعقيدة الإسلامية، وتفاعله مع كل حدث له مساس بهذه العقيدة، والشاعر الملتزم بهذه العقيدة يدافع عنها حق الدفاع ويبقى صامداً أمام الحدث. ولعلَّنا نجد في الشاعر الإسلامي ذي النون مصطفى يونس نموذجاً حياً ونقيا وهو يقف بكل جرأة وشجاعة أمام الحملات التشويهية التي يشنها الأعداء ضد الإسلام، نراه مدافعاً عقائدياً، لا توجهه سلطة سوى سلطة العقيدة التي آمن بها، وهي سلطة عليا بكل ما تحمله في ظواهرها وكوامنها، وهي السلطة العليا للأدب الإسلامي.

لقد تفاعل ذو النون مصطفى مع أهم وأكبر حدث معاصر واجهه المسلمون، عندما صورت يهودية حاقدة رسول الله صلى الله عليه وسلم بصورة قبيحة وذيّلتها بشتائم؛ إذ كتب قصيدة بعنوان (سيدي يا محمد) يستنكر فيها هذا الفعل القبيح كما يستنكر الصمت العربي فيقول:[٦]

جَسَدُكَ الممتدُّ بَينَ المحيطينِ

غَائبٌ أمْ مُسجَّى

سَيِّدي – يا مُحمَّدُ – أيُّها الوَطنُ الشجِيّ

أيَّتُها الذكرَى الدَامعَة

*** *** ***

أيُّها السيفُ كَيفَ أصبَحْتَ سَيفاً ... خَشَبياً في مَتْحَفٍ عَرَبِيِّ؟

أيُّها الوَحيُ كَيفَ أصبَحْتَ غاراً ... لَيسَ فيهِ غيرُ التُرابِ السفِيِّ؟

أيُّها الأنملُ الذي جَعَلَ الأرضَ ... سماءً بنُورِهِ النبويِّ

كَيفَ تَرضَى يا تَاجَ عِزِّ البَرَايا ... أنْ تَرَى صُورَةً لِهُزْءٍ بَغِيِّ؟

لَيسَ بدعاً أنْ ناشَ سُوءُ يَهُودٍ ... رَمْزَكَ المُصطَفَى بحِقدِ غَوِيِّ

---

[٦] مصطفى، ذو النون يونس. **جسر على وادي الرماد (ديوان شعر)**، عمان: دار المأمون، ط١، ٢٠٠٩م، ص٢٠٥.

جَعَلُوا دِينَهُم عِدَاءَ عِبَادِ اللهِ والطَبْعُ حَرْبُ كُلِّ نَبيِّ
إنَّهُ الوترُ يَستَقِي مِنْ ذُرَى التاريخِ سَمَاً، مِنْ أمْسِهِ الخَيبَريِّ

إنَّ هذا الثبات والتمسك بالعقيدة الإسلامية بوصفها مركز سلطة هذا النوع من الأدب، جعله أدباً ملتزماً، "يتحرك الإسلام في توجيهاته الأساسية والتفصيلية... إنَّه يبدأ من الذات باتجاه الموضوع، ومن الفرد باتجاه الجماعة، ومن الآنيِّ باتجاه المستديم، ومن البيئة باتجاه العالَم، ومن المحدود باتجاه المطلق، كما أنَّه يتحرك بصيغة الانديا ح الذي تنفذه الموجة، وهي تندفع دائرياً، متسعة شيئاً فشيئاً، باتجاه حالة أكثر شمولية وامتداداً."[٧]

إنّ سلطة الخطاب في الأدب الإسلامي هي الإسلام؛ روحاً وجسداً، مركزاً متعالياً، وموجهاً عقدياً للنص؛ لذا، فإنَّ أيَّ نصٍّ إبداعي إسلامي، شعراً كان أم نثراً، إنما هو مظهر لرؤى الأديب المسلم، عندما تنطلق هذه الرؤية من حقيقة بُعدٍ فكري، وتصوريٍّ يرى الإسلام ديناً شمولياً فيما يخص الإنسان والوجود وكل شيء في الحياة، انطلاقا من قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(المائدة: ٣) فيؤسس الإسلام نفسه من خلال الحاجة إليه؛ إذ إنَّ الإنسان، ومنذ نشوئه، ووعيه بعلاقاته وبالحياة والموت، والكون والوجود، كان "في حاجة إلى عقيدة تعمر قلبه، عقيدة تفسر له الحياة وتربط بينه وبينها، وتشغله بما هو أبعد من شخصه وأكبر من ذاته على نحو من الأنحاء."[٨]

٢. النص وفاعلية سلطة المركز:

إذن، الإسلام عندما أصبح عقيدةً وجدانية وفكرية لدى الأديب المسلم، هو فاعلية سلطة في الأدب الإسلامي، بوصفه خطاباً. وتكمن فاعليته في واقع نصين؛

---

[٧] خليل، عماد الدين. **رؤية إسلامية في قضايا معاصرة**، كتاب الأمة (سلسلة دورية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- قطر، عدد٤٥، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص٥٥.

[٨] قطب، سيد. **نحو مجتمع إسلامي**، بيروت: دار الشروق، ط٤، ١٩٧٩م، ص٢٢.

الأول إلهي، والثاني إنساني، كما تنبثق في واقعها من سلطتي نصين مزدوجتين في الحالة، من حيث الوجود السابق واللاحق، ومن حيث التفاعل الحقيقي بين النصين، ولكنها، في الوقت ذاته، ليست من سلطة وحدة نصين؛ لأنَّ النصين يفترقان من حيث الانبثاق والسياق والموجِّه. وهذا ما يجعل النص الأدبي الإسلامي يتماهى أمام النصوص الأخرى بقيمته المعنوية.

إنَّ حقيقة سلطة النَّص الأول هي سلطة المركز (الإسلام) بالإيحاء، والمتمثلة في (الله سبحانه وتعالى، والسنة النبوية الشريفة)، وما انبثق عنهما، والمتمثل في أساسيات التوحيد والتشريع، وكما ورد في النص القرآني الكريم، الذي نزل بوساطة الوحي؛ لغة وسياقاً، لا يقبلان التحريف والتغيير أو التقديم والتأخير، كما لا يقبل هذا النص وصفه بالقِدَم أو الحداثة أو الزوال وإحلال نص مكانه، لقدرة و(عزّة) المُنزِّل والمُنزَّل، بقوله عزّ وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)

يمكننا القول: إنَّ النص القرآني الكريم، ومنذ نزوله، كان يجيب "عن أسئلة الوجود والأخلاق والمصير، وهو يجيب عن ذلك بشكل جمالي فني، ولهذا يمكن وصفه بأنَّه نصٌّ لغوي؛ أي لا بدّ لفهمه من فَهْم لغته أولاً، وهذه اللغة ليست مفردات وتراكيب فحسب، وإنَّما تحمل رؤية معينة للإنسان والحياة، وللكون أصلاً، وغيباً ومآلاً."[٩] وهذه الرؤية لا بدّ أن تكون بكل توصيفاتها العقدية والفنية، النبع الحقيقي لأي نص يشكل في واقعه أدباً إسلامياً أو ينتمي إليه؛ لأن سلطة الرؤيا عند الاسترجاع الذِّكْري، أو المصدري، ترجع إلى سلطة عليا، هي سلطة القرآن، وهي سلطة مركز، ولا بدّ لها أن تكون سلطة متعالية، تنبئ عن قدرتها وفاعليتها وفق التصور الإسلامي، وهي تميز الثابت من المتحول أو المتغير في الحياة الإنسانية. لذا فإن ما جاء في القرآن الكريم يُعدّ حقيقة مُسلّمة.

[٩] أدونيس، **النص القرآني وآفاق الكتابة**، بيروت: دار الآداب، ١٩٩٣م، ص٢٠.

وإذا كانت القاعدة تقول: "لا اجتهاد في موضع النص"، فإنَّ التصور الإسلامي للخطاب القرآني، يقوم على الجهد البشري في تفسير القرآن وفهمه، في ضوء الثوابت المعروفة، كأسباب النزول، والخطوط العامة للإسلام.[١٠]

لقد كان الإسلام ولا يزال يشكِّل رؤية ذات أبعاد وقوانين إنسانية تتجاوز في كل ما شرعه الإنسان من قوانين وأنظمة وضعية، لذا، فقد كانت هذه الرؤية جادة في فاعليتها، واستطاعت أن تملأ فراغ النفس الإنسانية بكل ما تحتاجه، وتستنفد طاقته في الشعور والعمل، وفي الوجدان والحركة، للتأمل في الحياة والوجود معاً.[١١]

ومن هذا المنطلق، فإن مراجعة نقدية وتحليلية للنتاجات الإبداعية الإسلامية، التي ظهرت لعدد من الأدباء والمفكرين الإسلاميين ومنهم، على سبيل المثال لا الحصر، نجيب الكيلاني في رواياته (قاتل حمزة، ورأس الشيطان، وعذراء جاكارتا)، وعماد الدين خليل في أكثر من عمل إبداعي في مجالات القصة والرواية والمسرح، ومنها (رواية الإعصار والمئذنة، ومسرحية شيء عن الموت)، وحكمت صالح في مجال الشعر،[١٢] ومحمود شيت خطاب الذي بقيت مجموعتاه (عدالة السماء وتدابير القدر) بعيدتين عن النقد الحقيقي، كلها، تبرهن حقيقة تلك الرؤية الإسلامية للإنسانية وللكون والحياة والوجود؛ ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

٣. النص وشمولية المضمون:

إنَّ ما تقدم يثبت بأنَّ الأديب الإسلامي المبدع، على مر العصور، ينطلق من فلسفة مؤسسة من وحي المركز الذي آمن به، وجعله مساراً حياً لإبداعاته، وبأن النتاجات الإبداعية الإسلامية ترتكز على الثابت العقدي الموجِّه للمضمون؛ لأن المعاني

---

[١٠] المناصرة، عباس. **مقدمة في نظرية الشعر الإسلامي**، عمان: دار البشير- بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٧م، ص٤٠.

[١١] قطب، سيد. **في التاريخ فكرة ومنهاج**، بيروت: دار الشروق، ص١٤.

[١٢] عروي، محمد إقبال. **جمالية الأدب الإسلامي**، الدار البيضاء: المكتبة السلفية، ط١، ١٩٨٦م، ص٤٤-٥٠، وص٧٢، (كما عالج في قراءتين منفصلتين قصيدة (النبي وعصر التكنولوجيا) لحكمت صالح، ورواية (الإعصار والمئذنة) لعماد الدين خليل.

المقصودة في الأدب الإسلامي مؤسسة على محددات العقيدة الإسلامية، غير خارجة عنها؛ وهذا يعني أن العقيدة هي الحقيقة الأكيدة التي لا يختلط فيها الشك باليقين.

ولنا أن نتلمس هذا الثابت العقدي في نموذج من أدبنا الإسلامي القديم، وفي مقولة للنِّفري وهو من المتصوفة المسلمين؛ إذ يقول: "أنت الله مالك كل شيء، وأنا عبدك لا أملك من دونك شيئاً، أنا بك، ولا أملك إلا ما ملكتني، ولا يملك مني ما مُنعتُ منه، والكلماتُ الحاملةُ لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، وشكر كل نعمة الحمد لله."[١٣]

إنَّ هذا الثابت العقدي في أدب النفري وغيره من المتصوفة أمثال محي الدين بن عربي والحلاج وغيرهما، ما هو إلا من قبيل استمرارية امتلاك هاجس السؤال، والسؤال هو سؤال المعنى، و"ليس إلا فعلاً أعمق للكشف عن الأشكال التي تتمظهر بها البنية المعرفية التي يعيش في إطارها الإنسان؛ إذ يسيطر عليها نوع من التجانس في فهم الأشياء والذات، أو المعنى بمفهومه الشامل."[١٤]

لقد كان الأدبُ الإسلامي، ولا يزال، بكل مضامينه إنسانياً وشمولياً لاعتبارات المصدر (المركز) الذي يستوحي الأديبُ الإسلامي منه عقيدتَه الدينية، وهويته الثقافية الإسلامية، النابعة من تجربته الإنسانية لا على مستوى الفرد ولكن على مستوى الجماعة، بغض النظر عن الجنس والقومية؛ لأن الحقيقة السماوية التي نزل بها القرآن الكريم تؤكد على ذلك، في قوله عزّ وجل: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ (الروم: ٢٢)

ومن التجارب النموذجية الحية والجديدة في أدبنا المعاصر تجربة الشاعر الإسلامي حكمت صالح في قصيدته الطويلة (بلال)، ذلك العبد الذي وقف بوجه العبودية،

---

[١٣] النفري، محمد بن عبد الجبار بن محمود. **كتاب المواقف والمخاطبات**، تحقيق: آرثر أربري، تقديم: عبد القادر محمود، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م، ص٢٢٢.

[١٤] بلّعلى، أمنة. **الحركية التواصلية في الخطاب الصوفي**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م، ص١٢٦.

رافضاً لها، بكل قوة وإيمان، باحثا عن حريته وكرامته وإنسانيته المحطمة في ظل استغلال القوي للضعيف، والغني للفقير، فيقول الشاعر، وعلى لسان بلال:[١٥]

هَتفَ الصَوتُ بِهِ مِنْ لَجْلَجَاتِ النَفسِ...
يا إنسانُ، هَلا ثارَ بُركانٌ تَمَنّى
ثورةً...
تَنْتَسفُ الأعرافَ في ذا البَلَدِ...
لم تَزَلْ عَبداً... إذا شَاؤوا انتشاءً تَغَنّى
وإذا شَاؤوا...
فلا تملكْ مِنْ شَدْوِكَ لَحْناً...
هَتفَ الصَوتُ لِغيرِ المَرّةِ الأولى
ألا أبحثُ عَن إلهٍ يَقطعُ الأغْلال...
أغلالَ اليَدِ...

وفي مقطع آخر يقول بلال:

أنا زنجيّ
وبمفهومِ اصطلاحِ العَصرِ...
لكني إنسانٌ...
بِروحِي
وفِكرِي
بِضَميرِي... وَبِلَونِي الأبَنُوسِي،

[١٥] صالح، حكمت. **نحو آفاق شعر إسلامي معاصر**، مرجع سابق، ص٤٣.

إنَّ فَرضِي رافضٌ رَفضِي...

لأنّي قِيمٌ تَعشَقُ حُرِّيةَ إنسَانِيَتِي...

ولعلَّ ما ذهب إليه الشاعر محمد بنعمارة، في سبب إنسانية الأدب الإسلامي كان صحيحاً، عندما قال: "أمَّا الشعر الإسلامي من حيث محتواه الموضوعي، فهو إنساني، يخاطب في الإنسان سموه، ويركز على إضاءة جانب القدرات الإيجابية فيه، التي تنسجم مع مهمته فوق الأرض والتي تحقق مبدأ الاستخلاف. ما دام الإنسان مستخلفاً، إنه إضاءات وجدانية، وإشراقات عقلية في نفس الوقت، تستهدف الإنسان كأعظم مشروع يتحقق فيه التصحيح."[١٦]

ومن هنا يمكن أن نفهم، أن حقيقة التصور الإسلامي للمركز هي حقيقة ثابتة لا يمكن لها أن تغادر العقل المسلم المبدع، لا في سلوكه ولا في أدبه.

ثانياً: دلالة التوصيف

١. سلطة التوصيف:

نعتقد أنَّ مسألة توصيف هذا الأدب بـ(الإسلامي) لا يمكن إزالتها، ولا يمكن التغاضي عنها، وذلك لحقيقة ماهية سلطة التوصيف الذي يقوم عليه هذا الأدب، وملازمتها له، وهي حقيقة قصدية لا يمكن تجاهلها؛ إذ لا يوجد أدب، مهما كان نوعه، واتجاهه، لا يحمل في كل مقوماته الخارجية والداخلية قصدية وجوده، وقصدية التمظهر الذي يظهر فيه، وفضلاً عن ذلك، فإنَّ أيَّ خطاب عندما يُشكّل في وجوده رؤية، وسؤالاً، فإنَّ ما يشكّله لا يقوم من فراغ، ولا يؤسس نفسه على فراغ، وإنما يكون تبعاً لمرجعية قصد وجوده، بغض النظر عن وصفها. ولكن في الوقت ذاته يمكن توصيف ذلك الوجود بقدر ما يتعلق الأمر بموضوعه؛ إذ إنَّ هذا الخطاب يُشكّل في

[١٦] عروي، محمد إقبال. **جمالية الأدب الإسلامي**، مرجع سابق، ص٧٤. (نقلاً عن): جريدة (المسلمون)عدد٢، فبراير ١٩٨٥م.

وجوده وصيرورته وعياً يحدد هويته، وعمقه الفكري القابل للتفسير والتأويل، وبذلك، فهو بحد ذاته صيرورة وجوده النّصي المختلف عن صيرورة أي نص آخر.

فالشاعر الإسلامي حكمت صالح يقول في قصيدته (النبي وعصر التكنولوجيا) وهي من روائع الأدب الإسلامي:[١٧]

وَ(بِدارِ الندوَةِ) المغروز

في مِحْجَرِ تاريخِ العُصور

قِيلَ: يا مَعشرُ قد أنجبتِ الدُنيا غُلاماً

سَوفَ يبتزُّ الظلاما

بِسيوفٍ مِنْ زجاجِ القَرحِ البَارِق

في أُفُقِ المصِير

يَحمِلُ الأرضَ عَلى رَاحَتِه

يَخرُجُ الناسُ مِن الظلمةِ للنُور

ألا يا قومُ قَد حَانَ النُشُور

إنَّ إمكانية التأمل والتمعن في هذا النص تُظهر، وبوضوح تام، قصيدة الشاعر الإسلامي، فالشاعر حكمت صالح أعطى توصيفَه الإسلامي لقصيدته منذ البداية؛ إذ عنونها بـ(النبي.. والتكنولوجيا)، ومن أوَّل بيت حين قال:

إنَّ في الأرض الحجازيةِ.. في(مكة) أحقاباً توالتْ فيها أحداثٌ جسَام

ففي هذه القصيدة ظهرت تداعيات الذاكرة الإسلامية لدى الشاعر بوضوح من خلال حفظه (آية من سورة الفتح)، وذكره للرموز الإسلامية مثل (خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص، وابن أبي سرح)، والأمكنة الإسلامية، وبذلك يكون الشاعر

[١٧] صالح، حكمت. **نحو آفاق شعر إسلامي معاصر**، مرجع سابق، ص٤٣.

الإسلامي قد منح قصيدته هويتها العقدية، وتوصيفها الإسلامي، دون أيِّ توصيف آخر.

إنَّ مسألة توصيف الأدب بـ(الإسلامي)، لا يمكن أن نعدّها مسألة طارئة على هذا النوع من الأدب، بعد أن أخذ الأديب المسلم دورَه وطريقَه في الحياة الإنسانية، وأثبت أنَّ العالم الإنساني بحاجة إليه، وإلى هذا النوع من الأدب. لذا، فإنَّ زوال هذا التوصيف عنه، يفقده كل القيم النبيلة التي وجد من أجلها، فيصبح عندئذ أدباً مجرداً من المعالم التي خلقته، كأيِّ أدب آخر لا يختلف عنه بشيء.

ومن هنا، يبدو أنَّ البحث في مسألة توصيف هذا الأدب بالإسلامي يحتاج إلى وقفة تأمل واعية في هذا الأدب (العقدي)؛ إذ لو محونا السمة الإسلامية من هذا الأدب، وموضوعه، لأصبح بإمكاننا محو قصدية وجوده؛ لتساوي هذا الأدب في شكله ووزنه وإيقاعه، وجنسه ونوعه، مع أنواع الأدب الأخرى. بيد أنَّ السؤال الذي يطرح نفسه، هل هناك، مثلاً، شعر خارج أُطر شعر آخر غير متعارف عليها، إن كانت هذه الأطر هي الوزن والإيقاع والمقومات الأخرى للشعر من فكر وعاطفة وخيال، كي يبني الشعراء الإسلاميون شعرهم الإسلامي عليها؟ وكذا الأمر في الرواية والقصة والمقالة والخطابة، إلخ؟

إذن، فإنَّ توصيف الأدب، أياً كان نوعه، ضرورة ملحة لمعرفة انتمائه ودوافع ذلك الانتماء، عقدياً (سماوياً أو وضعياً)، وموضوعاً منتمياً إلى (المركز) العقدي، بغض النظر عن إمكانية قبوله أو رفضه، بوصفه نتاجاً إبداعياً يمثل ذلك الانتماء.

٢. سلطة المعيار:

يمكن القول: إنَّ التوصيف للأدب الإسلامي يعبّر عن الرؤية الإسلامية التي ينطلق منها الأديبُ الإسلامي المبدع، تلك الرؤية التي تنظر للكون والوجود والإنسان نظرة تنطلق من ذات التوصيف القرآني الشامل، أو كما صورتها السُّنة النبوية الشريفة. فالإسلام هو دين وحضارة، كان ولا يزال يقدم للإنسانية الرسالة الحضارية الإنسانية،

ومن هذا المنطلق فـ"إنَّ الأدب الإسلامي ليس الأدب الذي يحمل لقطة واحدة من هنا، ولقطة واحدة من هناك، ولا الذي يحمل لمسة هنا وأخرى هناك، على مسافات متباعدة تفصل بينهما مصادمة العقيدة، ومجانبة الأخلاق، واضطراب الإيمان. إنَّ الأدب الإسلامي خط غير متقطع، ونهج غير ملتو، وعقد من الجوهر موصول، ونفح من العبق غني."[١٨]

لذا، فإنَّ توصيفه بالإسلامي ينطلق من منظور يرى أنَّ معيار السلطة التي يتوصف بها هو (الإسلام)، ولا غير ذلك، وهو معيار يتجاوز حدود موضوعاته الجزئية، وشكله الذي يكتب فيه.

إنَّ هذا المنظور الإسلامي وبكل ما يحمله من حيثيات موضوعاته الدينية والإنسانية والحياتية، هو توصيف حقيقي للعمق الذي يرتكز عليه هذا الأدب وهو (الإسلام)، وهو (المركز) الثابت، فتوصيف هذا الأدب بـ(الإسلامي)، نابع من الصفات التي يحملها هذا الأدب، فضلاً على ذلك، فإنَّ العلاقة الحية التي تربط هذا الأدب بالتوظيف، الذي من أجله ظهر أو أنتج من قبل المبدع، يمكن أن تكون دلالة التوصيف فيه قصدية، لا محالة إلى ذلك؛ إذ تنبع هذه القصدية من هدف المبدع ومبتغاه فيما يحمل من أهداف وأغراض، تتصف بارتباطها بالعقيدة الإسلامية، وأساسياتها في خصوصية (التوحيد)، التي تقر بـ(لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ)، وبكل ما تحمله من مقتضيات التكليف الرباني، الذي قامت على أساسه الدعوة الإسلامية، فأقامت أفضل الحضارات الإنسانية، وأوسعها شمولية، فكانت منهجاً حياتياً.[١٩]

فإذا جاز لنا القول، إنَّ الأدب الإسلامي هو أدب التوحيد الإلهي، أو أدب التوحيد الإسلامي بانتمائه للإسلام، فإنَّ معاني التوحيد ذات خصوصية لا يمكن تجاوزها بما تتلاءم مع مكانة (المُوحَّد)، وهو الله جلّ وعلا، كما أنَّها شمولية المعنى من

[١٨] النحوي، عدنان علي رضا. **الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته**، الرياض: دار النحوي للنشر والتوزيع، ط٢، ص٨٣.

[١٩] ينظر: قطب، محمد. **رؤية إسلامية**، بيروت: دار الشروق، ص١٣٤.

حيث المقتضيات الحياتية التي أقرّها الشرع الإسلامي، لتشمل الحياة الإنسانية الدنيوية والأخروية، بدليل قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤)

إنَّ القراءة التدبرية للقرآن الكريم تفسح المجال أمام الأديب المبدع الإسلامي، للتعرف على لغة النص القرآني وإيقاعه؛ لأنَّ كل ما جاء في هذا النص يقوم على الاستبصار الإعجازي،[٢٠] خارج القراءة والكتابة الاعتياديتين، فهو كلام الله جلّ وعلا، منزل عن طريق الوحي على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم؛ لذا، فهو نصٌّ يتعالى على أيِّ نصٍّ إنساني، مهما كانت درجةُ تقاناته الأدبية متنوعةً ومتفردة متعالية.

٣. طبيعة التوصيف:

إنَّ طبيعة التوصيف في الأدب الإسلامي هي طبيعة حية، إذا نظرنا إلى الأهداف التي يحققها الأدب، فمن طبيعة هذا الأدب الخاصة به، أنَّه أدب إيماني، يسعى إلى تحقيق أكثر من هدف يتعلق بقضية الإيمان أولاً، وقضايا الإنسان العامة والخاصة ثانياً، وقضايا الكون والوجود ثالثاً. ولما ابتعد هذا الأدب من أن يكون أدباً ترفاً، و"لا يستطيع أن يكون هدفاً لذاته، ولا يقبل الإسلام أن يكون الفن للفن،"[٢١] لاعتبارات التوصيف الذي ينتمي إليه، فإنَّه أدب الدين والدنيا، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

ومن هذا المنطلق، فإنَّ فاعلية الأدب الإسلامي تتجسد من خلال التوصيف الموضوعي الذي يشكل سؤالاً يتجاوز في توصيفه الأنساق، والتعابير اللغوية التقليدية، وما يمكن أن يتجاوز التوظيف الآني، فيصبح هذا الأدب طاقة مستمرة ومتجددة، يصعب في بعض الأحيان حلّ رموزه، كما هو الحال في الأدب الصوفي الإسلامي، الذي يُعدّ تنوعاً جديداً في الأدب الإسلامي على صعيد اللغة والشكل والإيقاع والصورة، وعلى صعيد موضوعات الأدب الإسلامي.

---

[٢٠] ينظر: جمعة، حسين. **التقابل الجمالي في النص القرآني**، دمشق: منشورات دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع، ص٩٩.

[٢١] النحوي، **الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته**، مرجع سابق، ص٢٤.

إنَّ السؤال الذي يطرح نفسه: هل الأدب الصوفي ينتمي إلى الإسلام (المركز) عقدياً أو لا؟ وإذا كنَّا نُقرّ بانتمائه، فإنَّنا نقرُّ بوجود أدب إسلامي.

إنَّ الإقرار بوجود أدب صوفي يرتبط بالثابت (المركز) عقدياً هو إقرار بالانتماء؛ إذ إنَّ من أهم مظاهر هذا الأدب الفكرية مخاطبته للغيب، واستحضاره للمركز، من منطلق أنَّ "التصوف رؤية الكون بعين النقص، بل غضّ الطرف عن كل ناقص، ليشاهد من هو منزه عن كل نقص."[٢٢]

ولو تأملنا مقولات بعض المتصوفة المسلمين لوجدنا حقيقة انتمائهم العقدي بالمركز، وهو الله عزّ وجل. فهذا ابن تغري بردي المتوفى ٢٤٥هـ يقول: "إلهي ما أصغي إلى حيوان، ولا حفيف شجر، ولا خرير ماء، ولا ترنم طائر، ولا تنعم ظل، ولا دويّ ريح، ولا قعقعة رعد، إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك، وأنَّه على أنَّه ليس مثلك شيء."[٢٣] ومما أنشده:[٢٤]

اطلُبُوا لأنفسكُم مِثلَ مَا وَجَدتُ أنَا
قَد وَجَدتُ لِي سَكَناً لَيسَ في هَواهُ عَنَا
إن بَعُدتُ قَرّبني أو قَربتُ مِنهُ دَنَا

أما أبو حمزة الصوفي، فيُروَى أنَّه رفع رأسه إلى السماء، وقال:[٢٥]

لكَ مِن قَلبي المَكانُ المَصُونُ كُلّ صَعْبٍ عَليّ فِيكَ يَهُونُ

وفي حُبِّه لله تعالى يقول:[٢٦]

ولَهُ خَصَائص يَكلفُونَ بحبِّهِ اختارَهُم في سَالفِ الأزمانِ

[٢٢] السلمي، أبو عبد الرحمن. **طبقات الصوفية**، تحقيق: نور الدين شريبة، القاهرة: ١٩٥٣م، ص٢٧٨.
[٢٣] الأصبهاني، أبو نعيم. **حلية الأولياء**، مصر، ١٩٦٧م، ج٩، ص٣٤٢.
[٢٤] المرجع السابق، ج٩، ص٣٤٤.
[٢٥] المرجع السابق، ج١٠، ص٣٢١.
[٢٦] المرجع السابق، ج١٠، ص٧٩.

اختارَهُم مِن قَبْل فِطـــرة خَلقِـــهِ بِوَدَائـــــعَ وفوَائـــــدَ وبيـــــانِ

أما الجنيد البغدادي رحمه الله تعالى، وهو من كبار الشيوخ المتصوفة فيقول في حبِّه لله تعالى:[٢٧]

يا مُوقِدَ النارَ في قَلبِـــي بِقُدرتِـــهِ لو شئتَ أطفأتَ عَنْ قَلبِي بِكَ النارا

يبدو مما تقدم، أنَّ الأدب الصوفي هو أدب إسلامي المنـــزع، نبع من صفاء الإيمان بالعقيدة الإسلامية، وهذا يعني أنَّه يستوجب الإقرار لهذا النوع من الأدب، ولأيِّ نمط من أنماط الأدب التي تنـــزع منـــزعاً عقدياً إسلامياً أن يتصف ويوصف بالإسلامي، لاعتبارات أسباب ظهور هذا الأدب، ومنها المعيار الإسلامي.

بيد أنَّ هناك إشكالية قد تبدو ظاهرة في موضوع التوصيف الإســـلامي، وذلـــك يعود إلى الأساس الذي ينطلق منه في التوصيف وهو الأساس العقدي، ومما يجعل هـــذا الأدب خطاباً منغلقاً ومنفتحاً في آن واحد، منغلقاً على نفسه من حيث التوصـــيف، ومنفتحاً على الآخر من حيث (التوظيف)، فتوصيفه بالإسلامي ليس هـــو فـــرادة في الوصف وحسب، وإنَّما فرادة تنبثق عن سلطة التوصيف، التي هي سلطة المركز، بدليل قوله تعـــالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ (آل عمران: ١٩) فمعـــين هذا الأدب هو الإسلام بكل محتواه، ومعانيه الدينية والإنسانية.

أمَّا انفتاحه على الآخر، فإنَّ ذلك يعود إلى قدرة الأديب المبدع في إمكانية إيصال هذا الأدب الإيماني الإنساني إلى الآخر، فـــ"الأدب الإسلامي لا يتحمـــل مســـؤولية تقصير المسلمين، وهَوان المنتسبين، وذلِّ الغافلين، في بعض مراحل التاريخ الممتد، إذا لم يقدموا الأدب الصادق، والبعد الإنساني العميق."[٢٨]

---

[٢٧] الطوسي، السراج. **اللمع**، تحقيق: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، مصر: ١٩٦٠م، ص٣٨١.

[٢٨] النحوي، **الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته**، مرجع سابق، ص٨٠.

ثالثاً: دلالة التوظيف

١. منهج الأدب الإسلامي وغاياته:

ذكرنا فيما تقدم، أنَّ الأدب الإسلامي ليس أدب ترف ولهو، ولا يستطيع أن يكون هدفاً لذاته، لذا، فهو أدب قصدي، وذو أهداف كثيرة، ومتنوعة بتعدد الغايات التي من أجلها وجد هذا الأدب، ولعل أهمها (الدعوة إلى الإسلام)، وبيان منهجه الحياتي، الإنساني الذي يُقرّه، ومعالجته للقضايا الإنسانية معالجة شمولية.

إنَّ الأدب الإسلامي ومنذ ظهوره، يُعدّ من حيث مضمونه وتوجهه أدباً عقدياً، لارتباطه بالعقيدة الإسلامية التي ينطلق منها، والمفاهيم والرؤى الإسلامية التي يعتمدها في صيرورته. فهو أدب وظيفي بما يخدم العقيدة بكل شموليتها، ولكن هذا لا يعني، أنَّه أدب معزول عن الفن والإبداع الفني، إن كان في الشكل أو طرائق التعبير أو في اختياره لموضوعاته؛ فالأمر متروك للمبدع يختار ما يشاء، ليس هناك أمر ما يقيده أو يلزمه في أن يكون منحاه الفني من القرآن، أو المواضيع والقصص التي تناولها، ولكنه مقيد بقيد واحد، وهو أن ينبثق إبداعه عن التصور الإسلامي للوجود، وألا يصطدم بالمفاهيم الإسلامية للكون والوجود.[٢٩]

من هذا المفهوم يتبين أنَّ الأدب الإسلامي، وبوصفه خطاباً، أدب انفتاح على الآخر، من حيث توظيفه. ولما كانت سمة الأدب الحي، وميزته، أن يكون سؤالاً متجدداً لا يتوقف عند حدود أي جواب، فإنَّ الأدب الإسلامي يبقى سؤالاً حياً يجدد نفسه من خلال الإبداع، وموضوعه؛ فكرياً وفنياً، كامن في قدرة سؤاله إثارة المتلقي، من منطلق أنَّه الآخر الذي يرمي إليه الخطاب، ولأنَّه سؤال النزوع إلى العالم حين تتواصل النفس المسلمة مع معرفة الطريق إلى الله تعالى، وحين يصرُّ هذا السؤال على صدقه في التعبير الإنساني كخطاب إسلامي لا يمكن تجاوزه. وهذا ما يجعل منه خطاباً إنسانياً، وشمولياً، ليس من صنع المركز، ولكنه (مرجعياً) تكوينٌ من سلطته، يحمل

[٢٩] ينظر: قطب، محمد. **منهج الفن الإسلامي**، بيروت: دار الشروق، ط٤، ١٩٨٠م، ص١٤١.

سمات هويته، فهو من صنع إنساني قادر على إبراز الهوية التي ينتمي إليها في صورها الإسلامية وفي مضمونها.

ولَمَّا كان الأديب المبدع حراً في اختيار موضوعاته، واستخدام أدواته وأشكاله، فإنَّه يمتلك الحرية التي تكفل له إظهارها بأي مظهر، بعيداً عن التقليد والتعقيد، من خلال التجدد والتفاعل مع الآخر، فليس من الضروري أن تكون اختياراته "تعبيراً مباشراً عن مشاعر العقيدة وسبحاتها ووجداناتها. وإن كانت هذه بطبيعة الحال فنَّاً أصيلاً رائعاً يصل إلى القمة من عالم الفن، حين يؤدّى بأداء صحيح. ولكن المهم هو تصوير الحياة من خلال العقيدة، وإبراز حقيقة العقيدة العميقة في كيان الحياة."[٣٠]

إنَّ أيَّ أدب مهما كان نوعه وجنسه، إنَّما هو مظهر من مظاهر ثقافة الشعوب، وصورة حية لتكوينها الاجتماعي، وكذا الأدب الإسلامي، هو صورة حية وصادقة للتكوين الديني والثقافي والاجتماعي للشعوب الإسلامية، بغض النظر عن العرق والقومية والزمان والمكان. لقد ظلت الهوة بين الأديب الإسلامي ومتلقيه كبيرة، لا بسبب العقيدة ذاتها، ولكن بسبب عدم قدرة هذا الأديب من تجاوز معضلته في تقديم هذه العقيدة، فظل يراوح ما بين أصول العقيدة وفقهها، لذا يتوجب علينا أن ندرك حقيقتين مهمتين:

أولهما: "أنَّ الشريعة الإسلامية شيء والفقه الإسلامي شيء آخر. وأنهما ليسا متساويين، لا في المصدر، ولا في الحجية، وإنّ موقفنا في استحياء مقومات المجتمع الإسلامي ونظمه منهما ليس واحداً."

ثانيهما: "أنَّ الصورة أو الصور التاريخية للمجتمع الإسلامي، ليست هي الصورة أو الصور النهائية لهذا المجتمع، بل إنَّ هناك صوراً متجددة أبداً، يمكن أن تحمل هذا وصف "الإسلامي" وتنبثق من الفكرة الإسلامية الكلية، وتعيش في إطارها العام."[٣١]

---

[٣٠] المرجع السابق، ص١١٦.

[٣١] قطب، سيد. **نحو مجتمع إسلامي**، بيروت: دار الشروق، ط٤، ١٩٧٩م، ص٤٧.

ويعني ذلك، أنَّ على الأديب الإسلامي أن يدرك أنَّه أديب دعوة إسلامية وإنسانية، وليس فقيهاً، أو عالما مجتهداً، وأنَّ المجتمع الإسلامي مجتمع متجدد على الدوام من منطلق أنَّ الدعوة الإسلامية هي دعوة متجددة، ومستمرة على التجدد الحياتي مع بقاء الأصول وثباتها.

ومن الأمور الملاحظة، والمسجلة على الأدب الإسلامي أنَّه كان وإلى وقت قريب، أدباً تقليديا، لا يتجاوز حدود الوعظ والإرشاد، مما سبب مللاً في متلقيه، حتى قيَّض الله له أدباء مبدعين تجاوزوا محنة هذا الأدب، فعرفوا أنَّ الدين بأصوله لا يتعارض مع فنِّ الأدب وطرائقه، بُغْية توصيل وظيفته بصورة صحيحة، ومقبولة، لكي تكون مؤثرة في الآخر من قبيل إيصال الدعوة.

وهذا يعني أنَّ المجتمع الإسلامي القادر على التجدد المستمر، والتعايش مع المجتمعات الأخرى غير الإسلامية، لقادر، أيضاً، على أن ينتج أدباً متجدداً ومتنوعاً، ما دام منطلقاً من رؤية (الإسلام) ديناً. فالشريعة الإسلامية مع استقرارها من حيث ثبوتية (المركز)، لا تتعارض مع الانفتاح التحاوري بين الذات والآخر، بل هو المجال الشمولي الأرحب والأوسع الذي أبقاه المركز مفتوحاً أمام الآخر في إمكانية تقبله، بدليل سعة انفتاح الدعوة الإسلامية عليه. فهي لا تؤسس نفسها على اجتهادات الفقه الإسلامي، بقدر ما تؤسس لنفسها من خلال حقيقة الشريعة ذاتها، كما أنزلها الله تعالى في كتابه العزيز، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣)

٢. الإبداع وحركيَّة الأدب الإسلامي:

إنَّ الشريعة الإسلامية هي بنية معرفية (فوقية)، تتجاوز حدود الكتابة الأدبية والإبداعية، ولكنها في الوقت نفسه، تمتلك فاعلية حركية كبيرة، تفسح المجال للإبداع الأدبي الإسلامي بالتحرر من ثبوتية (الشكل) مثلاً، من منطلق أنَّ القرآن الكريم نفسه هو نصٌّ متنوع على أكثر من مستوى؛ فكرياً وفنياً، فيه من الآيات ما كانت على وزن الشعر وإيقاعه، وليست هي شعراً، وفيه من النثر وليست هي نثراً، إنَّه يعلو على

الشعر والنثر، وهذا ما أذهلهم، وأعجزهم، ولا يعني هذا أنَّهم لم يفهموا القرآن، ولم يعرفوه حق معرفته، ولكن الإعجاز القرآني أوقفهم عند الحدود التي يعرفونها في الشعر والنثر فلم تستطع مداركهم تجاوز تلك الحدود، لذا "ليس من اليسير أن نفهم أنَّ الناس قد أعجبوا بالقرآن حين تليت عليهم آياته، إلا أن تكون بينهم وبينه صلة، هي هذه الصلة التي توجد بين الأثر الفني البديع، وبين الذين يعجبون به حين يسمعونه أو ينظرون إليه."[٣٢]

إنَّ ما تقدم يعني أنَّ هناك فرقاً بين الشريعة كما أنزلها الله تعالى، وفقه الشريعة، لذا، فإنَّ أيَّ انفتاح نحو الآخر لا بدّ أن ينطلق من الشريعة ذاتها. ومن هذا المفهوم يمكن القول: إنَّ المنظور الإسلامي عندما يكون منطلقاً نحو كتابة أدبية وإبداعية، تشكل (خطاباً) وظيفياً، لا بدّ أن يدرك الأديب الإسلامي دور هذا الخطاب وفعله الإيجابي في الآخر، متجنباً السبل التي يمكن أن تعطله.

إنَّ المنظور الإسلامي هو المنظور ذاته ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، ولكن سبل الاتصال والتفاعل قد اختلفت، وهذا أمر طبيعي؛ فحياتنا اليوم لا تشبه حياتنا بالأمس. لذا، فعلى الأديب الإسلامي المبدع أن يدرك غاية الأدب الإسلامي، وطرق توظيفه، بعيداً عن أية إشكالية أو تعقيد بحجة أو أخرى. فالأدبُ الإسلامي له معينه الذي لا ينضب، وهو الإسلام، ومنه يستقي قوانين الحياة الإنسانية؛ فالعقيدة حين "تتأصل في النفس فإنَّها تصل بين الإنسان وبين الحقيقة الكبرى، حقيقة الألوهية، بشتى المشاعر، من الحبِّ والرهبة والخوف والطمع والأمل والرجاء. وتصل بين الإنسان والكون والحياة بصلات من التعاطف والمودة والقربى.... وتربط كيان النفس، فتستقيم على المنهج الواصل، توحد بين طاقاته المتفرقة وأوجه نشاطه المتباينة، فتجعلها طريقاً واحداً ذا غاية واحدة."[٣٣]

---

[٣٢] حسين، طه. **في الشعر الجاهلي**، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ط١، ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م، ص١٦.

[٣٣] قطب، محمد. **منهج الفن الإسلامي**، مرجع سابق، ص١١٦.

إنَّ حرية الكتابة في واقعها الوظيفي من قبل المبدع الإسلامي، تقابلها حرية القراءة لدى الآخر، ولكي تشكل حريةُ الكتابة انفتاح الخطاب على الآخر (على الإنسان والواقع والحياة، وعلى الزمان والمكان)، خارجَ حدود اللغة والشكل والإيقاع المكتوب بها، لا بدّ أن يكون توظيف هذا الخطاب متوافقاً مع الغرض الذي من أجله خُلق، ليمارس الوعي الإسلامي دوره في الدعوة الإسلامية، فيتوحد عند ذلك التوصيف والتوظيف، فتبدو نبوءةُ الخطاب إشراقةً متحررة من كل قيد، أو سلطة، إلا سلطة المركز، وعند ذلك تتعدد صور الخطاب في الآخر، فيستنفد غايته في إثارته، محققاً ثنائيته، على أنَّه الأنا في سؤال الآخر، والآخر في سؤال الأنا، وكل منهما إثارة حقيقية تستفز العقل والجسد.

خاتمة:

يشكل الأدب الإسلامي، كونه خطاباً، فاعلية لها مصداقيتها في الالتزام العقدي، من كون السلطة التي تنبثق منها هذه الفعالية هي سلطة المركز، والمقصود بها سلطة الموضوع الذي تنبثق منه. ولَمَّا كان لكل موضوع سلطته التي تتحكم به عفوياً، فسلطة الأدب الإسلامي هي الإسلام بكل تفصيلاته وتمركزاته المتعالية، المتمثلة في الخالق سبحانه وتعالى، والقرآن الكريم، والرسول صلى الله عليه وسلم، والسنة الشريفة.

ربَّما يخطر ببال الكثير من الأدباء والنقاد أنَّ الأدب الإسلامي شأنه شأن أي أدب آخر لا يختلف عنه، من منطلق أنَّ بعض القيم التي يبثها الأدب الإسلامي تشاركه بها أنواع أخرى من الأدب؛ لذا، كان هذا الموضوع رداً على تلك التخرُّصات التي تريد أن تمحو وتنكر وجود هذا الأدب؛ إذ إنَّ كل أدب ينبع من سلطة ينبثق عنها، وهي

مركز التوجيه فيه، فالغزل سلطته الحبُّ (القلب)، وأدب الجنس سلطته الغريزة (الجسد)، وهما سلطتان تختلفان اختلافاً جذرياً عن سلطة الأدب الإسلامي.

لقد أخذ الأدب الإسلامي مواصفاته وماهيته الخاصة به، التي تفرقه وتميزه عن أيِّ أدب آخر، من سلطة انبثاقه وتوصيفه. أمَّا توظيفه فهو توظيف عقدي مستمر بين المسلم (الداعية)، والناس لنشر الدعوة الإسلامية وتركيز ثوابتها القيمية، ولعلَّنا نتلمس ذلك التوظيف من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه، أنَّه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله عزّ وجل أنزل في الشعر ما أنزل. فقال: (إنَّ المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه. والذي نفسي بيده لكأنَّ ما ترمونهم به نضح النبل)."[٣٤]

وإذا كانت ثمة تساؤلات تثار حول الإبداع الإسلامي، فنقول: يبقى الشكل والمضمون عنصرين ورُكْنين متلازمين، وحرية الأديب المسلم في الإبداع الفني لا تلزمه سلطة المركز ودلالات التوصيف والتوظيف بالتزام صيغة إبداعية دون أخرى، ولكن المهم أن يظهر الأدب الإسلامي بزيه العصري المتجدد، بعيداً عن الإنشائية والوعظ الممل.

[٣٤] ابن حنبل، أحمد. المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٩م، ح٢٧١٧٤، ص١٤٧.